20120717-0001-12

قصة

الرجاء المحاولة لاحقاً وشكراً

منى باقر

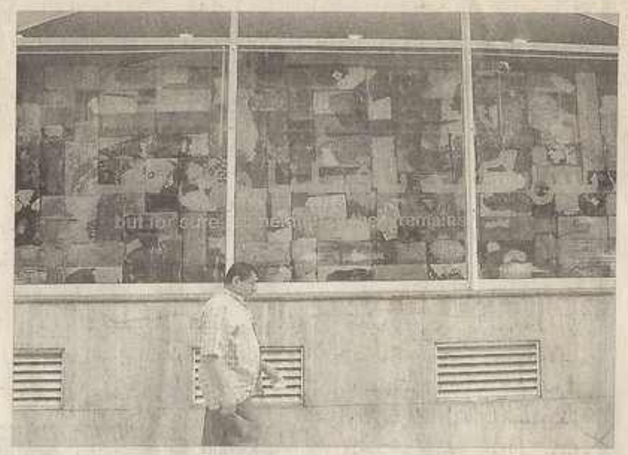

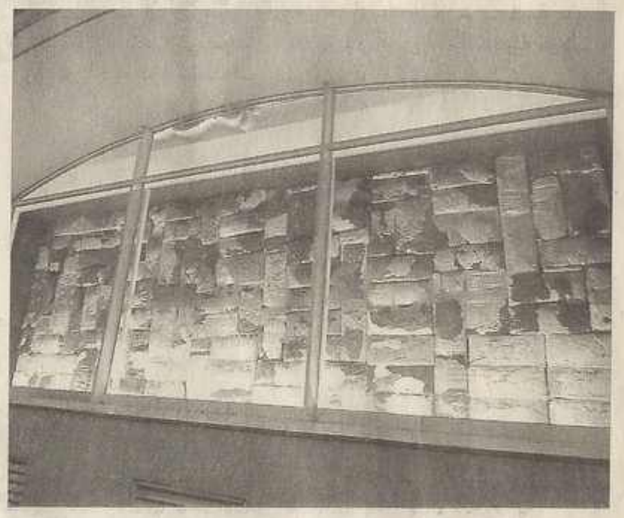

مستوحاة من تجهيز فني لرين محفوظ

الى وداد

- يا الله، مش وقتها هلّق!
- شو صار؟
- تعطّلت ماكينة الخياطة. لست أدري ما علّتها، حاولت مرات عدة، لا فائدة. تجمّع الخيطان في الماسورة السفلى، ثم تقطعها.
- حاولي مرةً اخرى.
- فعلت ولم أصل الى نتيجة. سوف أحملها غداً للتصليح. لا أستطيع الاستغناء عنها، وها أنا مجبرة على تقصير بنطلوني وخياطته باليد. حملت الجينز في حضني وشرعت بتقطيب رجليه. مزعجة جداً خياطة القماش السميك باليد. وينك يا إلهام...
- صحيح، لم لا تأخذينه غداً الى إلهام؟
- ليس لديها وقت لتصليح الملابس. أصبحت البروفسورة إلهام. رزق الله على أيام زمان.

كان الوقت لديها أطول والساعات أوسع، والصبحيات أكثر، وركاوي القهوة شي رايح شي جايي. هيدي قهوة أهلا وسهلا، وهيدي كرمال الست ندى: "معليش، شاركوها بفنجان تاني"، وهيدي قهوة الله معكم.

- لن ترفض لك طلباً، مساعدتها حنان ستقصّره بدقيقتين.
- ناوليني، الله يرضى عليك، مفكّ البراغي، الشقّ. شغلة بتكلّف خمسة آلاف، رح تكلّفني خمسين ألفاً.

تناسيت، لوهلة أن قواي قد هاجرت. لم أستطع يومها حلّ براغي ماكينة الخياطة، وما زالت قابعة في غرفتي، مثلها مثل العديد من الأدوات المعطلة في المنزل. جزء من الديكور، تملأ مكانها، ربما نخاف الفراغ المستحدث اذا ما نُقلت أو رُميت.

سمعت النصيحة، وعملت بها. قرعت باب الشغل الجديد لإلهام.

- صباح الخير حنان، كيفك؟
- صباح النور، يا أهلا بالست منى، أنا الحمدلله منيحة.
- وين الست إلهام؟
- صارت واصلة، تفضّلي، بتشربي شي؟
- لا، شكراً، شاربة قهوة كتير الصبح، الله يرضى عليك، حنان، لو بتدرزيلي زاف هالبنطلون، بكون ممنونة.
- تكرم عينك.
- يا أهلا وسهلا، يا أهلا وسهلا، مين عنّا هون؟ مش معقول، وجّك ولاّ القمر، شو فوّقك علينا، يا عمّي اشتقنالك، وين هالغيبة؟

وحضرت ركوة القهوة والبنطلون، بعد المعانقة والتبويس.

- كيف شغلك إلهام؟
- الحمد لله، مستورة، رزق الله على أيام زمان، ما كان فينا نحكّ راسنا، كان في ذوق، كان في ستّات بتعرف تلبس، كان في قماش غير شكل، القطن، الكتان، الحرير، الدانتيل، التفتا، الغوبور والمكسّر، الله يكسّر ايديهم، صار الجاهز إلو قيمة.
- معك حق إلهام، الأيام كتير تغيّرت.
- حتى فساتين الأعراس صاروا يستأجروها، أو يشتروها برخيص، شغل الصين. وكم واحد بهالبلد معهم مصاري، صاروا، قال شو، مصممين أزياء، وعالميين كمان، تلقّطوا، بالدعايات، بكم زبونة، وهيي كانت. ما عاد حدا يسأل عالشغل النظيف. ودخلك على هالجيل، ما خصّوا بشي، حتى بطانة ما بقى في، تصوّري، صار الساتان بينعمل منه فساتين.

وتضرب إلهام، متحسّرة، رجليها.

- كيف أولادك، شو أخبارهم؟
- مارو تزوجّت، ما معك خبر؟

وسافرت مع زوجها إلى دبي. وزوزو يقبر قلبي، بعده بألمانيا مع عيلته. وجورج هون، خاطب صار إلو سنتين، وما عم يلاقي بيت. دخيلكم شو هالغلا، يا بدّو يشتري بآخر الدني. منيح يلّي زمطنا بهالشقة قبل ما يموت خليل، الله يرحمو. بيني وبينك، هوّي بدّو، بس أنا ما بدّي يعيش معي. خلّيه يتكّل على حاله. يا أختي، قدّ ما يكون، بتصّل بنت الناس، غريبة، وكل ما دقّ الكوز بالجرة، بتقلّلو: هيدي أمّك. لأ، يروح يدبّر راسو، وبعدين يقبروني الاولاد، لو بتشوفي، اسم الله، شو حلوين. كل صيفية، بيبعتلي ياهم زوزو وبيقعدو معي شهر. مستعجلة؟ عا مهلك تا فرجيكي صورهم. حطّي الركوة يا حنان.

مع بداية كل صيف، كانت تصطحبني والدتي معها عند روجينا، أشهر خياطة في القرية. تأخذ مقاييسي و"اسم الله، طولاني يا منى".

مشغلها، له حيّز لا بأس به من المنزل: غرفة نوم كاملة، نصف الصالون، وحتى المطبخ. فَرشت أرضه بالخيطان وقطع القماش المقطّعة، من كل الألوان والأشكال الهندسية المعروفة وغير المعروفة.

كنت في كل زيارة، أتفحّص الأرض، باحثة عن شكل أو لون، كنت قد رأيته، عبثاً. أرمق والدتي واقفة كالصنم، رافعة اليدين، وتتمايل أجساد معاونات روجينا من حولها.

رقصة جميلة، ينحنين من حولها، يقفن، يغرزن بثوبها الدبابيس، يتراجعن الى الوراء، يقتربن مرة أخرى، ويدرن من حولها، حوريات كنّ، برقصة إجلال لإلهة.

- يللا يا منى، قومي تاتقيسي فساتينك.

كل ما أذكره، لم يرقصن لي حينها، ولا من حولي.

- روجينا، وين المجلات الجديدة؟

تتفحصها والدتي، محتسية القهوة.

- عندي عرس بآخر الشهر، بدّك تفضّيلي حالك، بكرا رايحة اشتري قماش.

- ست أليس، ما تتعبي وتدوري بسوق آياس ولا بالطويلة، روحي عند أنترانيك، جايب قماش أوروبي حلو كتير.

الثياب، والملابس، تلك الأقمشة الحاجبة والشفافة في الوقت نفسه. تحجب أجسادنا وتعكس أرواحنا، أذواقنا وأطوارنا، لتصبح جزءًا لا يتجزأ منّا:

بند اضافي على إخراجات قيدنا! مثل القميص الذي ابتاعته لي صديقتي، في أحد أسفارها:

- عندما رأيته معلقاً من بعيد، قلت لنفسي، هذه منى.

الله يشبعك تياب يا أليس. الله يرحم ترابك يا أليس.

تجمّعت النسوة، العابثات في ملابس والدتي، تدخّلت جدّتي، لتنتقي "كم قطعة"، لتبقى لي ذكرى منها.

نقلت السترات الجلدية والفرو من خزانة الى أخرى، حفظتها بأكياس النايلون، حشوت جيوبها بحبوب النفتالين. مكثت على تلك الحال سنين، أخرق سكونها مرة في السنة، أجرّبها، أضيع بداخلها، الى أن اهتديت يوماً إلى الهام. كل التعديلات التي أجرتها على تلك الملابس، أتت على القياس المطلوب، لكن فاقدة المعالم.

- مش ظابطين، مش أنا...

أدركت يومها، معنى الرابط الحسي مع الأشياء. كأني بها مؤشر، كمؤشر وول ستريت للأسهم والبورصة.

أصبحت متابعة للموضوع، متى تهبط أسهم التعلّق بالأشياء بعد رحيل صاحبها؟ متى نقرّر فتح تلك الخزانة، لنوزّع ثياب الفقيد؟

لكل خصوصيته، خصوصية درجات التعلّق بالفقيد وبأغراضه معاً.

- حرام هالجاكيت تزتّوها.

صرخت بنا خالتي عندما كنا نفرغ خزانة المرحوم.

- خالتي، الله يرحمو، صار لازم نعطي التياب لحدا يستفيد منها، أحسن ما تضلّ بوجّك بالخزانة.

- هيدي الجاكيت، كنت حبّها كتير عليه، اتركولي اياها.

وهكذا كان: بقيت الجاكيت معلّقة، وحيدة، بالخزانة.

الى أن هبطت أسهمها، فتخلّت عنها.

- أين فرشاة شعري الصغيرة؟

سألني يومها والدي. وقامت القيامة ولم تقعد، كيف أبادر الى رميها.

لم أستشره، ولم تعجبه الفرشاة الجديدة، بالرغم من تطابقها مع القديمة.

ما أزعجه، تصرّفي بأغراضه الشخصية من دون علمه.

لم أسأل الفقيد الغالي عن ثيابه. فتحت الخزانة، ببساطة ومرارة، وقرّرت اعطاءها كلها لمن هو في حاجة اليها. لن أرتدي، يوماً، احدى ستراته. هبطت أسهمها بشكل فجائي.

الفقيد الغائب، وكيف لي الأخذ برأيه؟ كيف للفقيد الغائب، أو المفقود الغائب الحاضر، اعطاء رأيه في الموضوع؟

لم أسأل، يوماً، صديقتي، متى تخلّت عن ثياب زوجها، وكيف؟ هل تركت سترة ما، لابن ما؟

هو المفقود الغائب، هل سألته؟

أكيد حاولت. فهي لا تزال على تواصل دائم معه، تزوّده، عبر الصحف والاعلام جردة سنوية عن أخبار حفنة من الناس، تجاهد، تناضل من أجلهم.

ربما أخذت في الاعتبار مرور السنين. اذا عاد، يوماً، المفقود الغائب، لن تكون ثيابه القديمة على الموضة. تغيرّت الأذواق كثيراً في غيابه.

لم أعرفه شخصياً، فقط من خلالها، وأعتقد أن الموضة والمظاهر لا تهمّه، حتى أرقام الهواتف "المميزة"، لو كان حاضراً، لما عنت له شيئاً.

بالرغم من هبوط أسهم ملابسه وتخلّيها عنها، لا تزال تحاول الاتصال: "التياب، فداك، منجيب غيرهم".

المفقود الغائب الحاضر، تطلبه كل يوم، تطلب الرقم العشوائي، تماماً كما انفقدوا عشوائياً وباتوا أرقاماً، وجزءٌ كبيرٌ منهم لم يعد يحمل حتى اسماً.

ويأتيها الرد الآلي نفسه: "ان الرقم المطلوب غير موضوع بالخدمة حالياً، الرجاء المحاولة لاحقاً، وشكراً".